حديقة المقتطف

رباعيات الغزالي

للشاعر الفرنسي جاك لاكوم

الحب الصوفي — الشك

نقلها خليل هنداوي

الحب الصوفي

٣ — الشك

كنتُ مؤمناً من قبل ، والآن ليس لي الاَّ الشك ،
أراني أقلَّ جنوحاً وارتياحاً وقوةً للعمل .
شجرة العلم هي شجرة الموت
وثمارها مرَّة المذاق للتذوّق.

هذا النور الحار في هذه السماء الزرقاء
يخيل اليَّ انهُ نظرة او قبلة الإله .
أين يثوي في الشتاء ؟
ومن أين ينبعث حنان الآله الملتهب حبًّا حينما يمسنا في الصيف ؟
وأنت ايها المصور الالهي الذي — على حواشي الابدية وفي اعماق الفناء —
ترسم صور السماوات والازهار والاكوان الجميلة
قل لي : هل اهملت الانسان من بين الاكوان ؟

لماذا يقهر الشك الروح دائماً ؟
وخير من فينا يحطمهُ القدر ؟
وما يشيده الحب يهدمهُ الموت .
أي صاحب خلقنا ، وأي عدو خرقنا ؟

آه ! ما هو هذا الجسد الذي ينخره الدود سريعاً ؟
والحب الذي يموّه علينا بهذا العطف القصير ؟
اذا قدرت يا الهي على ابداع الوجود مرةً ثانية
فكيف تغادر حلمك فيهِ غير كامل ؟
كنهر يجمع الرمال ويغرقها .
يجمع الزمن ويفرق طوراً بعد طور من يستدعيهم الحب ويؤلف بينهم
غير مركّب أبداً ما لا يفنى .

يخيَّل ان السماء تقارن السماء في الحياة ؟
انا لم احلم ابداً بالبقاء طويلاً .
هل يرون الكهول يضحكون ويسرون ببناء ؟
ان ماءهم القاتم لا يولد في نفسي شيئاً من الغيرة .
انك خلقتني يا الهي بدون رأيي !
وها أنا ذاهب لأهوي في الهوة المجهولة ،
من قبل أن ادرك اسرار وجودي الذي تذهلني عظمته أكثر من الفناء !
الحلم الذي تخالهُ حقيقة حين تنام .
واذ يتلاشى في ساعة يقظتك ترى ان روحك قد فقدت حقيقته
كذلك الاموات يشكُّون في حياتهم الغابرة .
أرانا نمشي تائهين كالمجانين
ونحن يمزق شملنا على الدروب .
اية غبطة تمروك من ذلك ؟
ولماذا النور فيك يقضي علينا بالشك ؟
المعركة انتهت ، والموتى — هنالك — راقدون .
وقد همدت جميع اصوات البغض والشقاء .
وهذا السكون الذي يتلو كل عاصفة بشرية كم يعلن قوة هذا الفناء !
والسماء الخالية التي تلد وتميت !
ما عسى يضيرها ان يتألم الناس او ان يتوهوا من ألمهم ؟
وفي هذه الهوة البعيد قرارها ، هوة الزمن والفضاء
ما قيمة شقاء ذرة عابرة ؟
وانت خاضع لهذا القليل الذي هو كيانك
إذا اتاك الموت فلا تصح ،
فانما الارض ضريح نُصيب وسادة لنا ،
تيقنا على أن نحلم لحظة قبل الرحيل .

ان هذه اللبنة التي ربما كانت مجبولة
من رفات عمر ، أو فيريدون ، او الاسكندر الكبير
قد تعجع في تشييد قصور للاحياء ،
ستعيد الريح نفية آثارها ، ونثر ترابها .

اننا بأيدي القدر شبيهون بالدمى الصغيرة ،
أو بكلمات واشارات باطلة .
تختلط ، وتتحرك وتدور مصمدة اصواتها
ثم يغمرها الصمت ، ثم يلفها الليل المدلهم !

ايتها العقدة السرية بين العدم والوجود !
آه ايها الحب لماذا دعوتني الى الظهور ؟
ايها الخيال الهائم بين الاشياء المختلفة
والعجب — مثلها — بهذا العالم المبهم ؟

إن سر الالـه كامن في كل ذرّة . . .
والصوان يواري في اعماق كراه كالليل في سكونه
هذا السر الذي تخفيه عنا الشمس .

متى نغادر قصر الوجود المتوهج
غداً او بعد غد ، هل أدري ؟
ولكننا سنغدو رفاقاً سهلين في الرماد الجدب لكل الآلى دك
الموت منهم الحياه !

الارض والصخور والبحار
وهذه الكواكب الساطعة !
والنفس البشرية مع آلهتها واحلامها وعبقريتها وجنونها
كل هذا ينبغي له ان يتلاشى في صدر السماء الفسيح !

حلمي وحده هو الذي ينطق بالجمال والصفاء
هذه الشمس الذهبية الدموية التي تهبط في القرار .
ولكن عندما يقهر الوعي الانساني على أمره
قد تستطيع ان تشتعل بعده لامعة ، ولكن صفاءها يغدو باطلاً .

تغذية جوفه ، وانعام كيسه ، وسروره بتخليد الفضاء والشقاء بلا نهاية .
ألا ما هو كل هذا الفناء ؟ وماذا يدعونهُ الحياة ؟
ليسرع الموت الذي ينقذنا !

رجلٌ عاقل أوحى بسر تكوين الآلهة !
على أنهم لم يكونوا قبل الليلة الاولى ، ولا قبل الاصباح الاول ،
ولا قبل الانسان الاول . . .
وانما الخوف او الحب عمرا السماوات بالآلهة .

اشقانا من قبل — في الايام الماضية . . .
السأم والخوف ، التقزز والبغض
وازدراء الدناءة البشرية .
لنخشَ الموت أقل مما نخشاه فهو وحده يشفي كل شيء .

سليمان الذي كان عرشهُ مرصداً
يأمر ارواح الارض والماء !
ولكن السأم القاسي على العظماء
قد أكله في قمة مجده .

انتهُ ساعة أعلن فيها ان كل شيء باطل .
حتى الحب الانساني والحب الالهي —
ووجد ان الخير للانسان ألاَّ يكون .
فبماذا يفكر العبد اذاً — وهو دُمية في يد مولاه ؟

مع الموت وأدناسه
كل شيء يحيا ويتجدد — وهذا نظام دائم
النرسة والزهرة والحيوان
والخير النادر والشر .

ان غريزتك البهيمية للحياة كثيرة فيك
وإذا كان — لا شيء — يوقظ من الآن قلقك
والاّ شيء — عندك — يغدو لا شيء ، ولا يثير فيك غيرة
فأقلع عن هذه الحياة غير آسف ولا خائف .

سيحل محلك من يولدون ،
ابناؤك الفتيان الاشداء .
فهل تحس أنهم بازاحتهم اياك ظافرون جذلون بما صاروا اليه ؟
قال لي الموت « انطلق ! انك زحمت أبناءك » !

انني ابغض ، واكره . . . بل كنت زمناً سكران بالبغض .
وكنت استعين اذا وقعت عليّ الفاحشة العامة بجائر يحطم هذه الهوام البشرية
والآن سرت اخجل من نذري المشئوم الذي نذرتهُ .

وعند ما تحس — في الحالة التي تصم فيها عن اصوات اصحابك الكئب —
تحس مرارة الحياة وشقاءها
وعند ما تئن ناحباً لان الحياة جرحتك
أحلمْ « بلانهاية الازمان » التي لا محيص منها .

الموالم المضمورة في ابديتك ،
المتلاشية فيك ، ماذا سيحل بها ؟
أتحول الى حلم ، او شعاعة برق ومضت ومَضَت ؟
لماذا هذا الاضطراب الباطل — لحظةً — بهذا الفضاء ؟

الشر الأدبي يا الهي قد اتخذ المادة عبدة
وأحبها فجعلها يوماً أمّا .
ولكنهُ الا يبقى هذا الذي التفت به وشجعتهُ
مقيداً بقيود هذا الحب الغريب ؟

روحك ظهرت لي يا الهي في الشمس
حيناً رقيقة ، واكثر احيانها مشتعلة .
الا انها كيف تتألم وتخفق دامية
في بعض أمسيات في الغروب القرمزي ؟

اهواؤك الالهية شبيهة بأهوائنا !
فلماذا تركض في رأسك هذه النجوم المجنونة ؟
أوليست نفسك التي لا تتناهى — يا الهي —
غير هذه النفس التي تضطرب قلقة فينا ؟

منذ ذلك اليوم الرائع ، يوم ولادتك يا آدم
يضيء ذات الشعاع في الانسان والشمس
وجودي والكون هما من كنه واحد
ونفسي واضطراباتها اجدها فيهِ .

ايها المسخ الذي تحركه نفس مظلمة
ايها المسخ الاخرس : يا أمي الطبيعة !
هل انا ضميرك وفعلك ؟
ولماذا يخيَّل اليَّ انك لا تفكرين ولا تتطفين الاَّ بي ولي ؟

ايتها الشابة دائماً ، ايتها الأم دائماً
ايتها الخليلة الدنسة والمقدسة حيناً

يا مضاعفة المشهد دائماً — ايتها الطبيعة !
اني اراك قاسية كما انت مشفقة وعذبة كما انت مرّة .

قد تنهمت نفسي خيراً من قبل حينما لاحظت نفسك ؟
وفي قلب اثمائك الفاحشين ما وجدت الاّ اياك :
ولا خطيئة فيهم الاّ كنتِ انتِ مصدرها

ايها الليل المزي للانسان !
ايها الليل : يا حلم ابن الكرى وراحته !
ايها الليل الهادىء الذي تمكن الاعمال فيه .
ايتها البحيرة السوداء ، ويا ايها القبر الساكن الذي تظلم فيه عقولنا !

انك وانت حي — انما تحيا وتسن بموت نفوس
وارتشاف دماء اجدادك الغائرين !
ضع ما تأخذ !
وادخل بلا عناد كنهر في بحر ، بحر الاكوان .

وفي هذا الكون المجنون الذي صنمهُ (مايا)[1]
تجد من قادهم الحب يتدحرجون خلال الاشياء
ويضطربون لها بدون سبب ، يشترونها حقائق منشودة

الستَ مروّعاً بالعدم المفعم ظلاماً ؟
حيث تتلاشى فكرتك وانت تحلم كثيراً
اصعد من العدم ، فالحب وحده ينقذك
ويأخذ بيدك ويهتف بك الى حياة جديدة !

(١) بحسب الخرافة الهندية

ألا بالرغم عن الدهر وعن الشقاء الذي يمضنا
لا تزال — هناك — لحظات سعيدة في هذه الرحلة الكونية
فلهدوء في طرف العدوة الثانية
والسلام الأكبر تلقاه تحت مظلة الموت .

في بعض الأمسيات حيث تذهل الحواس
يبدو لك الوجود كأثر الهي رائع .
وتفحات الريح لها حلاوة الاشعار
ولمعات السماء تشبه الالحان . . .

في فؤادي حفظت ذيول عينيك
الشبيهتين بالازهار التي تطلعها النفس علينا .
وفي فؤادي صنت شذا كلماتك .
وعذوبتك تركتني رحيماً .

انك تدري العقدة والفصل الاخير . . .
حيث لا نظر ولا كلام ثم لا شيء . . .

تذوّق — لحظةً ثانية — هذا النور وارشفهُ
تأمل واحلم
اعمل دائماً . . .
واصنع الخير . . .

خليل هنداوي

« يتلوه : شفقة الاستسلام »